مواطنون برتبة متسولين

أعشاش صغيرة متناثرة ليست فو ق أغصان الشجر،بل على أرصفة هذه المدينة البائسة.الجوع هنا من الأشياء العادية التي يعاني منها المتسولون إلا المحترفين منهم الذين يجيدون فرز الطعام من بين القمامة،حتى القطط والكلاب يتشاجرون على ما تبقى من عظام الدجاج والأوز القادم من القصر (قصر مجدولين والذي يحمل ذات الاسم لابنة رئيس الحي المدللة) نعم خلف القصر الخاص برئيس الحي يقطن بعض الرعاع (على تعبيره) الذين يتخذون من الأعشاش بيوتا هشة لا تحميهم من غضب السماء ولا من لفحات الشمس..

ذات صباح بينما يقوم راعي الحديقة بالقصر بري الأزهار والعشب كانت تبحث أليف عن بعض الماء النظيف لتشربه برغم أن الفرق بين القصر وحي البؤساء هذا سور، إلا أن الفرق بينهم كما الفرق بين الأرض والسماء.

رئيس الحي رجل لا يجيد فعل شيء سوى شم رائحة الأموال وعطور زوجات الوزراء،العقبة التي تنغص عليه أوقاته هي هذه العشش والتي كثيرًا ماينعت أصحابها

باللصوص برغم انهم لا يسرقون سوى حقهم بالحياة ولا يريدون شيئًا سوى الماء والخبز..

صوت أليف، وهي تصرخ وتلعن السماء عندما مرت فوقهم سحابة ماطرة استفز أمها مما جعلها تضيف التوابل على سبابها..

-أليف كيف لك أن تلعني السماء؟ أوليست هي من نصلي من أجل أن تدمع غيماتها عندما تخوننا الشمس.؟

-أمي أسألك برحمة الرب أن تكفي عن الشعارات، العشة كادت أن تغرق نصف سقفها سقط على الأرض، انظري حتى الرغيف اليتيم الذي نملكه أصبح مبللا ولم يعد يصلح لنا فلأوزتك المسروقة حظ أفضل من حظي على الأقل سيسكت الرغيف جوعها.. هل يرانا الرب حقًا يا أمي.. قبل أن تطلقي علي سبابك سأقوم بتصليح السقف..

- ابنة عاصية

- لست أنا يا أمي، بل الأيام كو ني منصفة

ثوب أليف ينشق إلى نصفين بينما تقوم برفع الصفائح لتعيد ترتيبها فوق السقف الهاوي وهنا يأتي مصطفى صاحب العشة الأكثر هشاشة،ثوبها المشقوق يكشف عن فخذيها يقترب منها ويلمسها،

-أليف من أين أتيت بهذا الجمال،أحضرت لك طعامًا شهيا،

-يوما ما سأقوم بقطع يديك

-اقطعيها واحتفظي بها للذكرى سأترك المكان اليوم

-إلى أين؟؟

- سأعبر السور،عم أمين وجد لي عملا بالقصر سأقوم بمساعدته في أعمال الحديقة

- حقًا، يا لبركة السماء سترى مجدولين حتمًا، لا تنسى أريدك أن تصف لي هيئتها، ملامحها،ملابسها طريقة حديثها كل شيء عنها أرجوك،فهذا العالم ليس منصفًا أبدًا. كيف يكون بيننا وبين الجنة سورا ولا نستطيع عبوره إلا بالواسطة تبًا للحياة..

- هذه المجدولين لصة صغيرة وريثة أبيها في الخيبة صدقيني عندما يصبح رئيس حينا المعظم رجلًا عاديا سينهدم هذا السور وحينها لن يفرق أحد بين الجنة والنار

-، ولكن هذا لا يمنع أنها جميلة ويتلهف عليها الرجال

-تقصدين كل أب القصر طمعًا في نفوذ أبيها هذا الرجل ليس رئيسًا للحي فقط،فهذا المنصب ماهو إلا ستار لأعماله النتنة، ألم تفكري للحظة أن هذا المنصب أصغر بكثير من قصرًا كهذا كما أن هذا الحي يخبئ خلف جدرانه سرًا، اسمعي بين أعشاشنا تلك جواسيس دسهم هنا لينقلوا له كل صغيرة وكبيرة خشية من أن نتآمر عليه فبرغم صغر حجمنا إلا أنه يخاف منا،بل أنه يرتعب ولا يستطيع النوم أيضًا.

- إذن عليك أن تصمت فحتى الجدران لا نمتلكها ليكون لها أذنان

- أضحكتيني ويالها من نكتة، كاذب هو من يدعي أن أربعة جدران هم الأمان،أنا لم أر أربعة جدران وسقف إلا في السجن بالعام الماضي عندما قمت بسرقة عشرة أرغفة من المخبز وقام الخبازون بضربي كما لو كنت لصًا!!

- يقول أبي أننا أول أهل الجنة،أبي أحمق أتعلم لماذا؟ لأنه لم ير زوجة رئيس الحي المتبرجة، وهي تستقل إحدى سيارتها الفارهة، يقولون أنها ورثت عن أبيها أموال طائلة ولم تكن يومًا بحاجة لأموال زوجها هي ليست جميلة،بالحقيقة المساحيق فقط تستر عيوب ملامحها..

يقول هذا لأنه يرى أمي بذات الثوب منذ أكثر من ثلاث أعوام..

- أليف أخشى أن يسمعك ذات يوم ويقوم بدفنك وأنت حية

-انس أنا فقط أحب الثرثرة، ماذا بشأن العشة خاصتك لمن ستتركها

- للورثة الشرعيين،أليف ماذا أصابك؟؟وهل لدي أحد هنا؟؟سأتركها للهواء،حتما سأعود يوما بعد طردي من القصر فأنا لا أمكث في عمل أكثر من سبعة أيام

- سمعت أنهم سيقومون بهدم المشفى المجاور للمحطة، أحدهم اشترى الأرض بثمن بخس على الرغم من أنها تساوي الكثير، الكثير من المال، أخبرني الحارس أن رئيس الحي له يد في ذلك.. هل حقًا يقوم بتسهيل عملية بيع

الأراضـــي التـــي تملكهـــا الدولـــة لرجـــال الأعمـــال والمستثمرين؟؟!

- أليف لا تسألي شأننا كشأن هذا الحمار الذي يقوم بجر حمولـة الخضـار الخاصـة بعـم وفيـق، ولا تتحـدثي بشـأن المشـفى مـع أحـد،أخبريني متـى سـتقومين بالانتهـاء مـن الأوراق الخاصة بالهوية..

- دعني أضحك بصوت عال،عن أي هوية تسـألني هـل تقصد اسمي وعنواني و دياناتي لقد فعل أبي الصواب بأمر الهوية حيث إن أمي ولدتني هنا بالعشة وأن جميـع الأوراق الخاصة بزواج أبي وأمي احترقت عندما شبت النيران فـي بيت أبيها، وعند ولادتي رفض الموظـف منح أبـي شـهادة ميلاد لأنه لا يوجد إثبات أننـي ابنتـه والآن أنـا سـعيدة جـدًا لأنني لا أمتلك ما يثبت أن هذا الوطن حقـا وطنـي،ثم أننـي أتساءل في كل لحظـة مـا الـذي سـيتغير فـي الـدنيا عنـدما أمتلك هوية..لن يتغير شكلي ولن تتغير العشـة سـيظل أبـي أبي وأمي هي أمي حتى الأوزة لن يتغير صـوتها، لا أريـد هوية أنا الهوية..هوية الآله على الأرض

- من أين تأتي بكل هذا الكلام

- من الروايات فأنا وبلا فخـر تعلمـت القـراءة والكتابـة على يد سيدة كانت تعمل لديها أمـي، ممـا يجعلنـي أسـتطيع القراءة،أعلم سوف تسـأل مـن أيـن أتيـت بالكتـب ونحـن لا نمتلك حق الرغيف، سرقتها من المكتبة، فإن لـم يكـن لـدي الحق بشرائها فلدي كامل الحق بسرقتها..

-كل يوم أكتشف أننا في عالم لا يستحق نحيبنا،لاشيء يجبرنا على الخوف لا من اليوم ولا من الغد فنحن لانمتلك شيئًا نخشى بفقدانه وهكذا أفضل،اقرئي حتى، ولو بالسرقة.

- المهم لا تنسى ما أوصيتك بـه مجدولين أريد معرفة كل شيء عنها أرجوك لا تنسى

- لن أنسي برغم إنني أعرف المعادلة بيننا وبينهم نحن فقط نضع الصفر خلف الواحد

- ماذا تقصد؟؟

-لاشيء انس..

وهنا يتوقف الحديث بينهم، لا شيء يشبع مخيلة أليف،فمصطفى هو مصباح لعتمة ليلها،كانت حزينة لأنه سيعبر السور وفي ذات الوقت سعيدة لأجله متسائلة ترى هل جنتهم شقاء كما يخبرني أبي دائمًا أم أنه يقول لي هذا الكلام كي لا أموت بحسرتي.

ثمة وقت تفقد فيه شهيتك لتصديق أحاديثهم فقط لأنك مقتنع تمامًا بما يدور في رأسك، وهذا مايحدث مع أليف لا تقتنع بصوت آخر غير صوتها.. في صباح اليوم التالي كان وداعًا قصيرًا لمصطفى، لن يبتعد كثيرًا عنها،القصر ومجدولين حلم أليف لاتريد أن تعيش فيه هي فقط تشتهي رؤيته من الداخل حلمها أن تلقي نظرة على حياة مجدولين وهنا يقطع شرودها صوت مصطفى:

- أليف لن أذهب بعيدًا سأكون هنا دائمًا اتفقنا وأتمنى أن تفكري جيدًا بشأن الهوية سنقوم بعملها وجمع الأوراق من جديد حتى لو استغرق الأمر سنة سنفعلها

- لا عليك المهم ألا تنسى أخبرني بكل شيء يحدث بالداخل أنا متشوقة لسماع حكاياتهم

- حسنًا لن أنس

يوم آخر مع أمها والتي لا تحمل هما سوى إطعام الأوزة،عم وفيق بائع الخضار تأخذ منه بقايا الخضروات والفواكه الفاسدة لتأخذ منها ما يصلح وتطعمه لأوزتها،بينما أبوها يقضي اليوم كله في جمع القوارير البلاستيكية من القمامة وبيعها بالكيلو، لم ينجبوا سوى أليف ثمة ما حدث في رحم أمها منعها من الحمل مرة أخرى،جمع الصفائح هي مهمة أليف بما في ذلك تنظيف قطعتين الملابس التي يملكونها.. انتظار مصطفى في آخر النهار من ضمن المهام التي تقوم بها..، ولكن الحظ لم يكن حليفا لها في هذا اليوم لم يأت مصطفى كما وعدها، انتظرت يوم آخر، ولكن لاجدوى ثمة ما يأخره ويمنعه من المجيء هكذا كانت تختلق له ألف عذر، لهذا الغياب،مضى أسبوعان على غيابه ومازالت تنتظره.

وبعد ظهيرة اليوم الخامس عشر أتى مصطفى، ولكن بثياب أخرى غير التي اعتادت على رؤيتها عليه،بنطال نظيف وقميص لا يحتضن أي بقعة بابتسامة قصيرة رحبت به بينما هو وقبل أن تتحدث بشيء قال:

- أليف أقسم أنه لم يكن ذنبي كان العمل شاق أكثر مما توقعت فالحديقة كبيرة أكبر مما تخيلت كنت أعمل طيلة النهار كما البهائم التي تدور حول نفسها بالساقية،ولكن أعلم أنك مستاءة مني.

- ما عليك المهم أنك تبدو بخير كما أن جيبك عامر بالسجائر،هل رأيت مجدولين؟

-لا لم أرها بعد حتى القصر لم أره من الداخل فغير مسموح للعاملين في الحديقة بالدخول إلى هناك، ولكن حدث شيئًا بينما كنت أقوم بتنظيف العشب من الأوراق الجافة،شاب أنيق جدًا قام رجال رئيس الحي بضربه ولوي ذراعه اليمنى كنت قريب منهم لدرجة أنني سمعت صوت عظامه، وهي تنكسر في أيديهم فتركت الأوراق والعشب وركضت نحو عم أمين وكل ما أخبرني به ألا أتحدث بالأمر مع أحد،أتعلمين كل ماخطر ببالي كيف سيتعاملون مع شخص مثلي حتمًا سيقطعون جسدي إربا

-أربعة عشر يومًا، وهذا فقط ما حصلت عليه كنت متشوقة لسماع الكثير من الحكايا خيبت ظني.

- أليف من الواضح أن خلف هذا السور ألف سور آخر يجب علينا أن نعبره لكي نعرف ما الذي يدور بالداخل فنحن أبعد مما تتخيلين عن هذا العالم، ومن الواضح أيضًا أنه عالم قذر، وأعشاشنا تلك أنظف من حكاياتهم الرثة بالداخل يحترمون اللص الكبير يقدمون له الضحايا قرابين وعهودا للوفاء أعمالهم السوداء يغطونها بستائر من

الكذبات البيضاء التي يضحكون بها على أمثالنا ليخرسوا أصواتهم، أتعلمين جئت اليوم هنا ولن أذهب إلى هناك مرة أخرى لقد تشققت يدي من أعشابهم الجافة حتى عم أمين رأيت فيه متسلط صغير يحكم علي بالعمل الشاق كل يوم، بلا رحمة.. هذه الثياب الجديدة دفعت ثمنها من كرامتي فشتائم عم أمين لي أمام رجال رئيس الحي ملتصقة بأذني وكأنه يظهر لهم قوته من خلال إلقاء الشتائم على العاملين بالحديقة،حصيلة تعبي بنطال وقميص وعلبتان من السجائر، وقليل من الطعام الذي أحضرته لأوزة أمك.

وهنا تضحك أليف ضحكة ساخرة، وهي تقول:

لقد ذبحت أمي الأوزة..